الرسالة

(٢ كورنثوس ٤: ٦–١٥)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ الذي أمرَ أن يُشرِقَ من ظُلمةٍ نورٌ هو الذي أشرقَ في قلوبنا لإنارةِ معرفةِ مجدِ اللهِ في وجهِ يسوعَ المسيح* ولنا هذا الكنزُ في آنِيَةٍ خَزَفيَّةٍ ليكونَ فضلُ القوَّة لله لا منَّا* مُتضايِقَين في كلِّ شيءٍ ولكن غير مُنحصرين. ومُتحيّرينَ ولكن غيَر آئسين* ومُضطَهدين ولكن غيَر مخذولين. ومطروحين ولكن غيَر هالِكين* حامِلين في الجسدِ كلَّ حينٍ إماتةَ الربِّ يسوعَ لتظهرَ حياةُ يسوعَ أيضاً في أجسادِنا* لأنَّا نحنُ الأحياءَ نُسلَّمُ دائماً إلى الموتِ من أجلِ يسوعَ لتظهرَ حياةُ المسيحِ أيضاً في أجسادِنا المائتة* فالموتُ إذاً يُجرى فينا والحياةُ فيكم* فإذْ فينا روحُ الإيمانِ بعينِهِ على حسبِ ما كُتِبَ إنّي آمنتُ ولذلك تكلَّمتُ فنحنُ أيضاً نؤمِنُ ولذلك نتكلَّم* عالمينَ أنَّ

ليس كلُّ شيءٍ يُوافق

محطّتُنا الثانية على الطريق إلى الصوم الأربعينيّ المقدَّس فالقيامة المُحيية، دعتْها كنيستُنا المقدّسة «أحد الابن الشاطر». يُقرأ اليوم هذا المَثَل الإنجيليّ البالغ العمق والتأثير، والذي يجسّد، بحسب آبائنا القدّيسين، قصّة سقوط الإنسان وافتدائه الخلاصيّ، وانفصاله (الطوعيّ) عن الآب السماويّ، ثمّ عودته إلى البيت الأبويّ بعدما بذّر ميراثه الروحيّ (الكرامة الإنسانيّة التي مَيَّزَه الله بها) في متاهات الحياة الدنيويّة. فَصَلَ هذا الابنُ إرادته التي، كما نقرأ في المَثَل، لم تكن بعدُ قد نضجت كفاية، وطلب نصيبه من الميراث، أي ما يبدو في القراءة السطحيّة حقًّا مباحًا، ورحل. ترك أمان الحكمة الأبويّة منقادًا بنزوة «التحرُّر والبحث عن الأفضل».

لقد وضع الله «البركةَ واللّعنة» بين يدي آدم منذ التكوين، أي أعطى الإنسانَ ملء الحريّة منذ الخَلق. نتيجةً لهذه الحرّيّة، صار كلّ شيء مباحًا، حتّى الابتعاد عن الله وعن اتّباع وصاياه. لكن هل هذا موافق له؟ قطعًا لا: الابن الشاطر مثال الإنسان الذي يستغني بحرّيّته ومفهوميّته عن حكمة الله وتعاليمه، فينتهي به الأمر وقد تسلّطت عليه اهتمامات الدنيا حتّى الإذلال.

الرسول بولس، في رسالة اليوم، لا يحذّر من أمور محرَّمة، بل من الأمور المُباحة، كيلا نظنّ أنّنا، بمجرّد اجتنابنا للمُحرَّمات، نكون قد نجَونا. نرى الرسول يخاطب فينا حسّ الحكمة والتمييز من أجل الاعتدال في الحياة: طبعًا، يحقّ لنا أن نسعى إلى الأفضل في كلّ تفاصيل حياتنا، شرط ألّا نقع في «الشراهة» بمعناها الواسع. تخلّى الابن الشاطر عن حكمة البيت الأبويّ إذ ظنّ أنّها ما عادت تكفيه، وخرج إلى ما ظنَّ أنّه اتّساع لآفاق حياته. تمامًا كالناس الذين غالبًا ما يظنّون، أو يقنعون أنفسهم أو الآخرين، بأنّ الوصايا الإلهيّة لا تتناسب ومتطلّبات الحياة الحاضرة. أو كالإنسان الذي، متى

العدد ٢٠٢٠/٧

الأحد ١٦ شباط

أحد الإبن الشاطر

تذكار الشهيد بمفيلوس ورفقته

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الثاني

قرأ ما يقوله الرسول بولس هنا، يكتفي بعبارة «كلُّ شيءٍ مُباح». يعلّمنا الرسول أنّ مَن أراد استخدام هذا الحقّ، عليه أن يحفظ حدود الاعتدال بيَقَظة الحكمة والتمييز، وإلّا يسقط في الإفراط، تاليًا يتسلّط عليه هذا الإفراط.

يستعمل الرسول بولس «الأطعمة والجوف» (أي البطن) لا ليقف عند حدود الطعام، بل للإشارة، رمزيًّا، إلى الشراهة بمعناها الواسع. أمور الدنيا كلّها، كالطعام، تبقى موافقة متى مورِسَتْ باعتدال، وتصبح ضارّةً في حال الإفراط. يتحدّث الرسول، في موضع آخر، عن «الذين إلههم بطنهم» (في ٣: ١٩)، أي الذين صاروا عبيدًا لأمور الدنيا بسبب شراهتهم. كذلك لا يقصد الرسول، في آية: «أمّا الجسد فليس للزنى بل للرّبّ، والرّبّ للجسد»، المعنى الحصريّ الضيّق للزنى، بل الشهوات الأرضيّة عمومًا، وهذه كلّها سيبيدها الرّبّ. يقول الرسول: «إن كان لنا قوتٌ وكسوة فلنكتفِ بهما» (١تي ٦: ٨)، مكرّرًا أهمّيّة الاعتدال. طبعًا، لا يُلغي الرسول، في تعاليمه، أحقّيّة الإنسان بالسعي، في يوميّات حياته، إلى ما هو أفضل. لكنّه يشدّد على التحذير من خطورة (وسهولة) الانزلاق إلى الإفراط فالشراهة، وهي الباب الأوسع لكلّ إثم ورذيلة.

مَيَّز الرسول بين البطن والجسد، والبطن أحد أجهزة الجسد، كيلا نفهم أنّ الطبيعة البشريّة هي أصل الشراهة. هو لا يدين طبيعةَ الجسد، بل استخدامه المفرط بسبب شهوات النَّفس. جسدُنا رأسه المسيح، وهو مرشدنا، وقد جَعَلَنا أحدَ أعضائه. كيف يمكننا إذًا أن نجعل هذا الجسد (أي كلّ حياتنا على الأرض)، المُمَيَّز بهذا الكرامة، والمُشترى بالدَّم الثَّمين، أسيرًا للشراهة (بمعناها الواسع) وعبدًا للأهواء؟

بعد التحذير من الإفراط وإدانة الشراهة، ينقلنا الرسول إلى وعد الخلاص، تمامًا كما في مشهد عودة الابن الشاطر إلى الحضن الأبويّ. «الله قد أقام الربّ وسيقيمنا أيضاً بقوّته»؛ رأس جسدنا هو المسيح ونحن أعضاء في جسده، والجسد سيتبع حتمًا قيامة الرأس، طالما تمسّكنا بإرشاداته في كلّ تفاصيل حياتنا. أمّا إن فقدنا حسّ الاعتدال واستسلمنا للإفراط، فسنكون كالابن الشاطر في غربته، مُعدَمين وأذلّاء، نشتهي علف الخنازير ولا نطاله، حتّى لو امتلكنا كنوز الأرض. يعود الرسول إلى رمزيّة الزنى قائلًا: «من اقترن بزانية يصير معها جسدًا واحدًا» لأنّ «الشراهة»، كالزِّنى، تعطي مُتعة وقتيّة خادعة، ولا وفاء عندها. مَن يقع في شراهة الشهوات تخدعه، إذ يظنّ أنّه ينال منها متعةً، لكنّها في الحقيقة تسود عليه حتّى الاستعباد. «أمّا الذي يقترن بالرّبّ فيكون معه روحًا واحدًا»؛ الخياران ونتائجهما أمامنا، يعبّر عنهما الرسول بشكل جليّ، مؤكّدًا، عبر قوّة المقارنة بين الخيارَين، أنّه لا يهدف إلى إلغاء الرغبة الحرّة بل تنقيتها من السوء.

«لستم لأنفسكم... لأنّكم قد اشتُريتُم بثمن»؛ نفهم أنّ الرسول لم يهدف، ممّا سبق، مجرّد «تخويفنا» من مساوئ فقدان الاعتدال والسقوط تحت سيادة الشراهة. نسمعه يقول لنا إنّنا نستحقّ، في نظر الله، أفضل من هذا بكثير. هو يحرّك فينا الوعي الذي أقام الربَّ يسوعَ سيُقيمُنا نحن أيضاً بيسوع فننتصب معكم* لأنَّ كلَّ شيءٍ هو من أجلِكم لكي تتكاثر النعمةُ بشُكرِ الأكثرين فتزداد لمجدِ الله.

الإنجيل

(لوقا ١٥: ١١–٣٢)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانٌ كان له إبنان* فقال أصغرُهما لأبيهِ يا أبتِ أعطِني النصيبَ الذي يخُصُّني من المال. فقَسَمَ بينهما معيشتَهُ* وبعد أيامٍ غيرِ كثيرةٍ جمَعَ الإبنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ له وسافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ وبذَّرَ مالَهُ هناك عائشاً في الخلاعة* فلمَّا أنفقَ كلَّ شيءٍ له حدثَت في ذلك البلدِ مجاعةٌ شديدةٌ فأخذ في العَوَز* فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلدِ فأرسلَهُ إلى حقولِه يرعى خنازيرَ* وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانتِ الخنازيرُ تأكلُه فلم يُعطِهِ أحدٌ* فرجع إلى نفسِه وقال كم لأبي من أُجَراءَ يَفْضُلُ عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً* أقوم وأمضي إلى أبي وأقولُ له يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك. ولستُ مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً فاجعلني كأحدِ

أُجرائك* فقام وجاء إلى أبيهِ. وفيما هو بعدُ غيُر بعيدٍ رآهُ أبوه فتحنَّنَ عليهِ وأسرع وألقى بنفسِه على عنقهِ وقبَّلهُ* فقال له الإبنُ يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك ولستُ مستحِقًّا بعدُ أن أدعى لك ابناً* فقال الأبُ لعبيدهِ هاتوا الحلَّة الأولى وألبِسوه واجعلوا خاتَماً في يدهِ وحذاءً في رجلَيهِ* وأْتوا بالعِجْلِ المسمَّنِ واذبحوه فنأْكل ونفرَح* لأنَّ ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد. فطفِقوا يفرحون* وكان ابنُه الأكبرُ في الحقل. فلمَّا أتى وقرُبَ من البيتِ سمعَ أصواتَ الغناءِ والرقص* فدعا أحد الغِلمانِ وسأَلهُ ما هذا* فقال لهُ قد قدِمَ أخوك فذبحَ أبوك العجلَ المسمَّنَ لأنَّه لقيَهُ سالماً* فغضبَ ولم يُرِدْ أن يدخلَ. فخرجَ أبوهُ وطفِقَ يتوسَّلُ إليه* فأجابَ وقالَ لأبيهِ كم لي مِنَ السنينِ أخْدِمُكَ ولم أتَعدَّ لك وصيةً قطُّ وأنت لم تُعطِني قطُّ جَدياً لأفرحَ مع أصدقائي* ولمَّا جاءَ ابنُك هذا الذي أكلَ معيشتَك مع الزواني ذبحتَ له العِجلَ المسمَّن* فقال لهُ يا ابني أنت معي في كلّ حينٍ وكلُّ ما هو لي فهو لك* ولكن كان ينبغي أن نفرحَ ونُسَرَّ لأنَّ أخاك هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد.

نفسه الذي تحرّك في الابن الشاطر لمّا عاد إلى نفسه، والذي تأكّد في مشهد استقبال أبيه له. يدعونا، من جهة، إلى ضبط أنفسنا إزاء كلّ ما هو غير موافق لنا، كلّ ما قد يتسلّط علينا، كَيلا يتبدّد ميراثنا السماويّ؛ ويرفعنا إلى السماء، من جهة ثانية، داعيًا إيّانا، كأعضاء في جسد المسيح، إلى أن نمجِّد الله في أجسادنا وفي أرواحنا «التي هي لله».

التهيئة للصوم

رتّبت كنيستنا المقدّسة أربعةَ آحادٍ تسبق الصوم الأربعينيّ المقدّس، تهيّء من خلالها المؤمنين لدخول ميدان الصوم والإنطلاق في رحلة التوبة. تسعى كنيستنا إلى صَون المؤمنين روحيًّا من خلال اللّيتورجيا والحياة الروحيّة، إلّا أنّها مدركةٌ لواقع أنّنا نعيش في عالم مليء بالخطيئة. عالمُنا ملعبٌ يحاول الشيطان فيه، دون انقطاعٍ، اقتناص المؤمنين. هذا الواقع، يدفع بالكنيسة أن تعيش سنويًّا هذه الرحلة الروحيّة من تهيئةٍ وصوم، وأسبوع عظيم مقدّس، كي يستطيع المؤمنون أن ينالوا الخلاص الممنوح لهم بقيامة الربّ يسوع من بين الأموات.

قد يظنّ البعض أنّ الصوم أصبح أمرًا طبيعيًا في حياة المؤمن الذي اعتاد على هذه الفترة السنويَّة المهمّة روحيًّا، والتي تسمح له بالصلاة والخشوع. إلّا أنّ علينا الانتباه إلى أنّ هذا هو صلب المشكلة. يجب ألّا يتحوّل الصوم والتوبة إلى مرحلة سنويّة يمرّ بها المؤمن بشكلٍ خشوعيّ ويغتني روحيًّا، ليعود بعدها إلى حياته التي اعتادها قبلًا. أن تصوم يعني أن تبدّل ذاتك، وتغيّر ما اعتدت عليه، وتدخل في عشرةٍ مع الله، حيث الحلاوة. التوبة هي السلاح الذي نقضي به على الخطيئة، لكنّها ليست السلاح الذي يسمح لنا بأن نُطلق العنان لرغباتنا وأهوائنا، مراهنين أنّه يمكننا أن نتوب متى شئنا، فنؤجِّل توبتنا. من هنا أهمّيّة هذه الآحاد الأربعة في تحضير المؤمن قبل دخول المعركة. هذه الآحاد هي كساعات التمرين التي يمضيها الرياضيّ محاولًا اكتشاف نقاط ضعفه لكي يتجنّب الخسارة. إنّها كالفترة التي يضع فيها المدرّب خطّةً لفريقه قبل الانطلاق نحو هدفه، أي الفوز.

هذه الفترة التي يتهيّأ فيها المؤمن لمعاينة الخلاص المُعَدّ لنا بقيامة الربّ يسوع هي المعروفة باسم «التريودي». تعود هذه التسمية إلى الكتاب الذي تستخدمه الكنيسة في مراحل الصوم الثلاث. المرحلة الأولى هي آحاد التهيئة للصوم، والمرحلة الثانية هي الصوم الأربعينيّ المقدّس، فيما الثالثة هي الأسبوع العظيم المقدّس. قبل بدء التريودي، يأتي أحد زكّا العشّار ليذكّرنا بأنّ الطريق إلى الله ليس مرئيًا أمامنا بسبب الخطيئة الواقفة حاجزًا أمامنا حاجبةً رؤيتنا لله. لذلك، على المؤمن أن يشابه زكّا في صعوده جمّيزة الفضائل، ليرى الله فيصير اللهُ هدفَه. حينئذٍ، يبدأ الجهاد عبر رفض الخطيئة، مثلما وعد العشّار بإعادة الأموال التي اختلسها.

الأحد الأوّل من التهيئة هو أحد الفرّيسي والعشّار، وفيه تذكّرنا الكنيسة بقواعد التوبة. القاعدة الأولى هي ألّا أدين أخي، وألّا

أتفاخر بأيّ عملٍ أقوم به. الفرّيسيّ العارف الكتب المقدّسة تكبّر، وظنّ أنّه صالحٌ، فوقع في الخطيئة من دون أن يُبصرها. أمّا العشّار فأدرك خطيئته وسارع إلى الله مصلّيًا، طالبًا الرحمة.

الأحد الثاني هو أحد الابن الشاطر، الذي فيه يتذكّر المؤمنون النِّعم التي نالوها من الله. نتذكّر الحلّة الملوكيّة التي نلناها عند خروجنا من جرن المعموديّة، والتي اتّسخت بفعل الخطيئة والابتعاد عن الله. هذا الأحد، ترسم فيه الكنيسة صورة المؤمن الذي يمثّله الابن الأكبر الذي، وإن لم يقل إنّه فَرِحَ بخطيئة أخيه، إلّا أنّ الحسد جعله يشعر بالضيق حين غفر الأب خطيئة ابنه الأصغر. كما تذكّرنا الكنيسة برحمة الله، الفائقة الوصف، الذي لم يسأل ابنه عن أمواله ولا أين كان بل استقبل ابنه العائد إليه كما لو أنّ شيئًا لم يحصل.

تضعنا الكنيسة، في الأحد الثالث، أمام مشهد الدينونة. تذكّرنا، من خلال قراءات صلاة السَّحَر، بالدينونة التي ستحصل عند المجيء الثاني لربّنا يسوع المسيح: «لمّا تجلس لتدين الأرض... فللصوت القائل، هلمّ للفرح، اجعلني أنا أيضًا أهلًا». هنا، على المؤمن أن يتذكّر أنّ هدف جهاده الأساسيّ هو أن يكون من عداد سامعي دعوة الربّ للمشاركة في المُلك الذي لا نهاية له. أيضًا، يبدأ المؤمن في هذا الأحد مرحلة محاولة العودة إلى الحالة الفردوسيّة الأولى، حالة ما قبل السقوط، بالانقطاع عن تناول اللّحوم، وبذلك يدخل في نوعٍ من المصالحة مع الطبيعة كما كان في الفردوس.

يبلغ المؤمن، في الأحد الرابع، الحدَّ الفاصل، وهو البدء بزمن التوبة، بدء الصوم. هنا، تذكّرنا الكنيسة بطرد آدم من الفردوس. نتذكّر المجد الذي كان للإنسان، والمكانة التي سقط منها. نتذكّر، في نهاية هذه الفترة التحضيريّة، المكان الذي علينا السعي للعودة إليه. خُلق آدم ليحيا في عِشرةٍ مع الله، إلّا أنّ الشيطان أغوى حوّاء وآدم، وكان سقوطهما عظيمًا. نشاهد في أيقونة هذا الأحد، رئيس الملائكة ميخائيل وهو يطرد الجدَّين الأوَّلَين من الفردوس، وندرك مفاعيل الخطيئة التي لا نزال نحن أيضًا نحياها؛ نشعر بحجم الخسارة التي تكبّدناها، على رجاء أن نسلك زمن الصوم بتوبةٍ حقيقيّة لنكون مستحقّين أن نرتدي الحلّة الملوكيّة كالابن الشاطر حين تاب.

تتجدّد هذه الدعوة سنويًّا في حياة الكنيسة والمؤمنين. لا تكلّ الكنيسة باحثةً عن الخراف الضالّة، ومرشدةً إيّاهم إلى الحظيرة حيث الغنى والمجد. مثلما حثَّ المعمدانُ اليهودَ على التوبة قديمًا، تأتينا هذه الفترة لحثّنا على السلوك في التوبة لكي تتقدّس نفوسنا، حتّى إذا ما جاهدنا الجهاد الحسن، ننال حظّ المُخلَّصين، وتكون مصابيحنا مملوءةً زيتًا عند وصول الختن.

للإطلاع على أخبار الأبرشية:

www.facebook.com/metbei

أو

www.quartos.org.lb

تأمل

إذا أردتم أن يكون لكم مقياسٌ للتوبة الحقيقيّة، خذوا في الاعتبار أنّ التوبة الحقيقيّة تجلب حالًا الرجاء بالمسيح وبالرحمة الإلهيّة، وتجعلك تتّكل على عطف الله، فتثق بالغفران الذي يمنحه، كما تشعر بالراحة منذ اللحظة التي تتوب فيها حقًّا. من المؤكَّد أنّ هذه الراحة وهذا الرّجاء لن يجعلاك تقول: «يكفيني هذا القدر من التوبة»، لأنّهما كلاهما يعملان بشكل إيجابي.

هذا يعني أنّ التوبة النقيّة تجعلك تثق برحمة الله وتشعر بعنايته وغفرانه، الأمر الذي يدفعك إلى طلبها أكثر فأكثر. كلّما ازدادت توبتك شعرتَ أكثر برحمة الله، حينئذٍ لا تستغربوا أن يكون هذا السرّ العظيم بمثابة عيد. لذا، من غير المعقول أن يكون التائب الحقيقيّ شخصًا يائسًا، يطغى عليه البؤس أو غير ذلك من المظاهر التي قد تظهر عند بعض الذين يُفترض أنّهم، حيث نجد بعض الذين يعترفون يقولون بيأس: «أنا لا أستطيع أن أصلّي... لقد فقدت قواي... مزاجي ليس جيدًا». لقد ظنّ أولئك أنّهم تابوا وفهموا أخطاءهم، بينما في الحقيقة لا تكون هذه سوى مظاهر للأنانيّة الجريحة.

الأرشمندريت سيميون كرايوبولس